ناجي نجيب وسيطا ثقافيا وحضاريا مزدوجا بين العربية والألمانية

سامي سليمان أحمد
قسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة القاهرة

ليست مسألة العلاقة بين الثقافتين العربية والألمانية في العصر الحديث موضع خلاف بين الدارسين الذين عنوا بالوقوف على التجليات المختلفة لتلك العلاقة في عديد من المجالات. ولا ريب أن ثمة أسماء متعددة من الجانبين العربي والألماني قد أدت أدوارا مؤثرة في تحقيق تلك العلاقة؛ مما كان له انعكاسات متعددة في إتاحة جوانب وإسهامات من كل ثقافة لدى شرائح من القراء في الثقافة الأخرى. وعلى الرغم من أن أدوار المترجمين والنقاد والكتّاب العرب في التعريف بالثقافة الألمانية وتقديم كثير من نصوصها الأساسية، لاسيما في مجالات الأدب والنقد والفلسفة وبعض العلوم الإنسانية والاجتماعية، تفوق أدوارَ نظائرهم من الألمان في تقديم الثقافة العربية في الإطار الثقافي للناطقين بالألمانية، فإن هذه الوضعية ترتبط بطبيعة السياق الحضاري الذي تتشكل فيه علاقاتُ هاتين الثقافتين معًا. ونرى أن ثمة نمطا متفردا من حيث أدواره في التقديم المتبادَل للثقافتين؛ وهو نمط نصفُه بأنه نمط الوسيط الثقافي والحضاري المزدوج؛ إذ يؤدي هذا النمط دورا ثنائيا تتحقق تجلياته في السياقين الثقافيين والحضاريين المتناظرين العربي والألماني على السواء. ويستند التكوين الفكري والثقافي لهذا النمط إلى معرفة عميقة بمكونات الثقافتين في عديد من مجالاتهما المشتركة أو المتقاربة، أو المختلفة، كما يستند إلى فهم، على قدر من الرصانة، بالأطُر التاريخية لتشكل هاتين الثقافتين كليتهما، بقدر ما يمتلك وعيا متسعا بطبائع المهام التي تدفعه سياقاتُ عمله إلى تفهم خصوصياتها. ونرى أن هذا النمط يمكن وصفه بأنه نمط الوسيط الثقافي والحضاري المزدوج قد تحقق في أعمال مجموعة من الدارسين العرب ذوي العلاقة بالثقافتين العربية والألمانية، ومن أبرزهم ناجي نجيب (١٩٣١–١٩٨٧)، وهو ناقد مصري، ومترجم لمجموعة من نصوص الأدب العربي الحديث إلى الألمانية، ودارس للأدب العربي والأدب الألماني والأدب الإنجليزي. وُلد بمحافظة المنيا بصعيد مصر، وبعد دراسته اللغة الإنجليزية بجامعة عين شمس رحل إلى ألمانيا الغربية في عام ١٩٦٠ ليدرس اللغة الألمانية بمدينة ميونيخ، ثم انتقل إلى برلين الغربية عام ١٩٦١ ليلتحق في العام نفسه بجامعة برلين الحرة حيث درس بها الأدبَ الألماني، وحصل منها في عام ١٩٦٨على درجة الدكتوراه، في مجال الأدب الألماني الحديث، برسالة عن الكاتب السويسري "روبرت فالسر". ومع بداية سبعينيات القرن العشرين عمِل بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة برلين الحرة ليقوم بتدريس الأدب العربي الحديث، وقد ظل يعمل بتلك الجامعة حتى وفاته. ومنذ منتصف سبعينيات القرن العشرين شارك المستشرقةَ الألمانية الكبيرة، وذائعة الصيت في الدراسات العربية والإسلامية "ماري أنّا شميل" (١٩٢٢–٢٠٠٣) في تحرير مجلة "فكر وفن" التي كانت تُعنى بالتعريف بالثقافتين الألمانية والعربية[١] حيث قدم فيها عددا وافرا من المقالات التي تناول فيها عددا من قضايا الأدب العربي الحديث والمعاصر، كما نشر فيها أيضا مجموعة من المقالات التي تناول فيها بعض قضايا الأدب الألماني وكتّابه. ولعل هذا التنوع في مقالاته تلك كان علامة أولى على تحقيقه دور

---

(١) انظر:

Gabriele Braune: Nagi Naguib , in Der Islam: Zeitschrift für Geschichte und Kultur des islamischen Orients, Band 65, 1988.

الوسيط الثقافي والحضاري المزدوج؛ فبقدر عنايته بالكتابة عن أدب ثقافته القومية والتعريف بمجموعة من أبرز كتّابه وقضاياه الحديثة والمعاصرة كانت عنايته المماثلة بالكتابة في الأدب الألماني الذي كان مجال اختصاصه في مرحلة الدراسات العليا. وتعد مختلف إسهاماته الثقافية كاشفة عن مساعي نجيب لتحقيق أدواره في تجسيد نمط الوسيط الثقافي والحضاري المزدوج، وهي أدوار تمثلت في الترجمة، والكتابة النقدية المقارنة، والاستفادة من الثقافتين اللتين يعمل في عديد من مجالاتهما، وفي التدريس أيضا.

اهتم ناجي نجيب بترجمة مجموعة من نصوص الأدب العربي الحديث والمعاصر إلى الألمانية؛ فقد جمع بين ترجمة نصوص من أنواع أدبية مختلفة، وهي: الرواية والمسرحية والقصة القصيرة[٢]؛ ومنها رواية "قنديل أم هاشم"(١٩٨٠) ليحي حقي (١٩٠٥-١٩٩٢)، ورواية "ثرثرة فوق النيل" (١٩٨٢) لنجيب محفوظ (١٩١٢-٢٠٠٦)، ومسرحية "مأساة الحلاج"(١٩٨٥) لصلاح عبد الصبور(١٩٣١-١٩٨١)، ومسرحية "علي جناح التبريزي وتابعه قفة"(١٩٨٢) لألفريد فرج (١٩٢٩-٢٠٠٥)، كما ترجم مجموعة مختارة من القصص القصيرة لعدد من الكتّاب منهم يوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١) وأليفة رفعت (١٩٣٠-١٩٩٦). وفي مقدماته لتلك الترجمات سعى ناجي نجيب إلى تعريف طلاب الدراسات العربية من الألمان ببعض جوانب التطور في الأدب العربي الحديث، كما توقف عند مجموعة من المؤثرات الأوربية في الأدب والفكر العربي الحديث. ولعل سياق عمله في التدريس هو الذي يفسر توجه ترجماته وكتاباته عنها نحو تحقيق هدف مزدوج؛ يجمع بين تقديم مجموعة من النصوص العربية المختارة لكونها تعكس – من منظور نجيب- ملامحَ من تطور الأدب العربي الحديث والمعاصر، كما تكشف عن كونها تمثيلات أدبية لمواقف الأدب العربي الحديث والمعاصر من قضايا كبرى مطروحة في الثقافة العربية الحاضرة كالموقف من التراث العربي واستلهامه في أنواع أدبية كالمسرحية، أو دور الرواية في عكس بعض قضايا مرحلة تاريخية واجتماعية كمرحلة الستينيات لاسيما ما يتعلق بوضعية المثقف في علاقته بالسلطة الحاكمة، وغيرها من القضايا. كما أن بيان المؤثرات الأوربية في تلك النصوص ونظائرها من نصوص الأدب العربي الحديث كان يتيح للدارسين الألمان خاصة – والأوربيين عامة- المعنيين بالأدب العربي الحديث الوقوفَ على بعض تجليات الأثر الأوربي فيها.

ويعد النقد المقارن مجالا من أبرز المجالات التي يتبدى فيها دور ناجي نجيب بوصفه وسيطا ثقافيا وحضاريا بين الثقافتين العربية والألمانية. ولعل إسهام نجيب في هذا المجال كان يستأثر لديه باهتمام خاص لاسيما أنه كان يتيح له إبرازَ اختلاف الرؤى بين النصوص العربية والألمانية التي يتخذ منها موضوعا لتفعيل آلياته في القراءة النقدية المقارنة. وقد اتخذ المنحى المقارن في قراءات نجيب النقدية التطبيقية صورتين رئيسيتين؛ انصبَّت أولاهما على الكشف عن تجليات الموقف من الحضارة الأوربية في عدد من الكتابات ذات الأهمية الثقافية والاجتماعية في الأدب العربي الحديث؛ حيث عُني نجيب باستنباط تجليات ذلك الموقف من نصوص كتّاب ممثلين للأجيال الرائدة في الكتابة الأدبية العربية الحديثة، وهذا ما يتبدى بوضوح في كتابيه "توفيق الحكيم وأسطورة الحضارة الغربية"(١٩٨٧) و"يحيي حقي وجيل الحنين الحضاري"(١٩٩٢)، حيث ينحو نجيب إلى استجلاء عناصر مواقف الكتّاب من الحضارة الأوربية على النحو الذي تعكسه نصوصهما؛ بما يعني أنه يتعامل معها على أنها تمثيل لموقف حضاري لا يخصُّ الكاتبَ وحدَه بل يخصُّ جيلا أو مرحلة بكاملها في مسار الثقافة العربية الحديثة.

وتبدو الصورة الثانية من صور القراءة النقدية المقارنة عند نجيب قائمة على نوع من القراءة

---

(٢) انظر: منار عمر: ببليوجرافيا الأعمال العربية المترجَمة للألمانية من ١٩٩٠-٢٠٠٤، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

المتأنية لنصوص عربية وأوربية لاستجلاء جوانب التشابه ومظاهر الاختلاف بين رؤى كتَّابها، مع ربطهما معًا بالسياق الحضاري الذي كُتبت فيه هذه النصوص. وتتبدى تلك الصورة في كتابيه "الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق: دراسة مقارنة"(١٩٨١)، و"قصة الأجيال بين توماس مان ونجيب محفوظ"(١٩٨٣) ففي أولهما يقدم مقارنة نقدية بين رحلتي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"(١٨٣١) للكاتب والمفكر المصري رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) و"المصريون المحدثون: عاداتهم وتقاليدهم"(١٨٣٦) للمستشرق الإنجليزي وليم إدوار لين(١٨٠١-١٨٧٦)، وفي الكتاب الثاني يقارن نجيب بين روايتي آل بودنبرك"(١٩٠١) للكاتب الألماني توماس مان (١٨٧٥-١٩٥٤) و"الثلاثية" لنجيب محفوظ. ويغلب على منحى نجيب المقارن التركيزُ على المضمون أو المحتوى أو الرؤية التي يتضمنها النص موضع القراءة، والبحث عن تجليات تلك الرؤية في المتن بوصفه نتاجا لمرحلة حضارية يتمثلها النص الذي يتحول – من منظور قراءة نجيب- إلى دال ثقافي وحضاري يكتسب أهميته لكونه علامة ثقافية وحضارية تتجاوز منشئها لتصير عاكسة لرؤية حضارية خاصة بمرحلة تاريخية واجتماعية في حياة مجتمعها. ولعل تأمل واحد من إسهامات نجيب في هذا الجانب يكشف عن كيفية كون نجيب وسيطا ثقافيا وحضاريا مزدوجا؛ ففي كتابه "الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق: دراسة مقارنة" عمِل نجيب على استكشاف مضمون النصين مع ربطه بسياقه الحضاري والثقافي الذي يجعل منه تمثيلا لرؤية الحضارة التي ينتمي إليها المؤلف أو الكاتب. وقد اعتمد نجيب في قراءته تلك على تفعيل نظرية التلقي في النقد الألماني المعاصر، ولاسيما في صيغتها التي شكلها هانز روبرت ياوس (١٩٢١-١٩٩٧) في النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين. فهذه النظرية تعدُّ، فيما نرى، المصدر النقدي الرئيسي الذي استمد منه نجيب عددا من مفاهيمه النقدية الرئيسية في دراساته المقارنة. وفي دراسته رحلتي الطهطاوي ولين تبدت عناصر متعددة من أفكار ياوس لاسيما ما يتعلق منها بكون الكتابة الأدبية تحقيقا أو استجابة لأفق توقعاتٍ قائمٍ لحظةَ إنتاج تلك الكتابة، ورغم أن ناجي نجيب قد كرر استخدام تعبير "توقعات" و"اهتمامات" القارئ بمعنى قريب من معنى "أفق التوقعات" عند ياوس، فإنه لم يُشِرْ إلى الأصل النظري الذي استمد منه مفهومه مكتفيا بتفعيل ذلك المفهوم في سياق درسه التطبيقي. كما يبدو أثر ياوس، على نحو أشد جهارةً، في تقرير نجيب نسبيةَ فعلِ القراءة الذي يقوم به القارئ المعاصر حين يقرأ نصوصا تنتمي إلى فترات سابقة، ومن ثم تشكِّل القراءاتُ المختلفة للنصوص تواريخَها الحقيقية في مضمار التلقي. وإذا كانت تلك التصورات التي يقدمها نجيب تكشف عن قوة علاقة أفكاره بتنظيرات ياوس، فمن المهم أن نسجل أنه لم يكن يشير إلى كتابات ياوس؛ إذ كان يكتفي باستمداد الخيوط العامة لبعض مفاهيمه منها دون الجدل معها مكتفيًا بتفعيلها في ممارسته النقدية[٣]؛ ربما لأن التطبيق النقدي لتلك الأفكار كان يعنيه أكثر من الاهتمام بالتأصيل النظري لأفكاره بردِّها إلى المصدر الذي استمدها منه.

ويكشف هذا النشاط المتعدد الوجوه الذي قام به ناجي نجيب ما بين دراسة الأدبين الإنجليزي

---

(٣) للتفصيل، انظر: سامي سليمان أحمد: قراءة نص الرحلات من منظور مقارن عند ناجي نجيب، ضمن كتاب المقارنون العرب اليوم، الجزء الأول، تحرير إدريس إعبيزة، جامعة محمد الخامس- أكدال، المغرب، ٢٠١٣.

والألماني، ودراسة الأدب العربي وتدريسه وترجمة مجموعة من نصوصه، والكتابة في مجالات العلاقة بين الأدبين العربي والألماني، عن إسهامٍ له دورُه في مجال الدرس المقارن وبيان العلاقات بين الأدبين العربي والألماني، مما يجعل لتجلية هذا الدور أهميةً في الكشف عن إسهامات ناجي نجيب في النقد العربي المعاصر. ويمكن للدارس أن يؤكد أن أعمال ناجي نجيب النقدية تعد جسرًا من أبرز جسور التواصل بين الثقافتين العربية والأوربية أو الألمانية على وجه الخصوص في النصف الثاني من القرن العشرين.